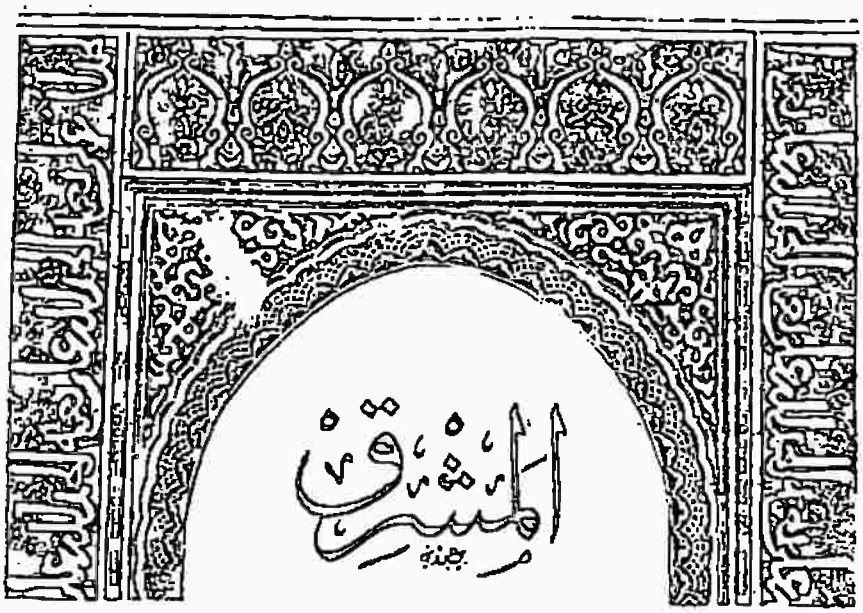

السنة الثانية والثلاثون — تشرين١ – كانون١ ١٩٣٩

في سبيل اتحاد الكنائس

ذكرى المجمع الفلورنتيني

١٤٣٩–١٩٣٩

بقلم الاب فرنان دي لانترسن اليسوعي

لمن اشهر الأحداث في تاريخ النصرانية حدث الثامن من شباط ١٤٣٨، اذ وصل الى مياه البندقية اسطولها الذي اعدّه البابا اوجين الرابع لنقل وفد الروم.

وكانت امارة البنادقة اذ ذاك تقوم بكل ما في وسعها من غنى وحفاوة في استقبال الوفد استقبالاً منقطع النظير، في اليوم الثاني من وصوله. وقد اوفد البابا، وهو بندقي الأصل، صديقه امبرواز تراڤرساري، رئيس الكمالدول العام، الى ملاقاة الامبراطور. وعُنيت الاوامر بان لا يُهمل شيء في سبيل اثالة الشرقيين فكرة سامية عن الضيافة الغربية.

وذلك ان الحدث المذكور لم يسبق له مثيل . كانت تُعقد المجامع العامة . وكان يأتيها الاساقفة الكثيرون ، فيتجشمون مشاقّ الاسفار الطويلة من اطراف الامبراطوريّة الى القسطنطينية ، او الى أفسس ، او الى سرديك . وقد حضر الامبراطور ميشال پاليولوغ بنفسه مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ ، فقدّم الى البابا غريغوريوس العاشر شهادة الايمان التي اتخذها عن سلفه اكليمنضوس الرابع . ولكن لم يشهد اي مجمع من المجامع السابقة مثل هذا الحشد من الاساقفة الشرقيين يقودهم امبراطورهم وبطريركهم فيهبطون بلاد الغرب للبحث والمداولة بشأن الاتحاد . أوَليس هذا حدثاً فريداً ؟ أوَليس جديراً بان تُعلق عليه أعظم الآمال ؟

ومما كان يزيد في اهمية الحدث المذكور ، فيعزّز الآمال المعلّقة عليه ، هو ان الفريقين المتداولَين كانا بأمسّ الحاجة الى الاتحاد ، بل كانا لا يستطيعان الاستغناء عن الاتحاد .

كان الاتحاد ، في نظر الروم ، من تلك المسائل الخطيرة ، المؤدّية الى حياة الامبراطورية او الى موتها . هي سلامة المملكة تتعلّق بنتيجة المناقشات . وستتضح هذه القضية جلاء ، بعد خمس عشرة سنة ، اذ يدخل محمد الثاني عاصمة الدولة فيقضي على الامبراطورية البيزنطية . بيد ان الروم كانوا يشعرون ، منذ السنوات البعيدة ، بقرب الخطر العثماني المتقدّم يوماً فيوماً مضيقاً عليهم الخناق . ذلك ان الاتراك لم يكتفوا بالسيادة في آسية الوسطى ، حيث جعلوا من مدينة بروسة عاصمة لهم ، بل اخذوا يتسرّبون الى البلاد البلقانية . وها ان سلطانهم مراد الأول يضع يده منذ السنة ١٣٦٠ ، على ادرنه وفيليپوپولي من تراقية ، وعلى قسم من بلغارية ومقدونية . ولا ينتهي القرن الّا وقد اصيب المسيحيون بانكسار نيكوپولي على نهر الدانوب ، على رغم ما اظهره من شجاعة فرسان الفرنسويين الذين اسرعوا بقيادة جان سان پور تلبيةً لنداء سيجسموند ملك هنغارية ، فلم يكنهم الّا تخليص الشرف في تلك المعركة التي كان تهوّرهم من اسباب خسارتها .

وكان يحقّ لبايزيد ان يعدّ نفسه سيد القسطنطينية من ذاك الحين ، لولا ما

كان من ظهور تيمورلنك في الافق الشرقي ، فاضطرار السلطان الى دخول آسية لمحاربته . ولكن لم يكن تراجع الاتراك الّا هدنة موقّتة . فبينا كان المجمع الفلورنتيني على وشك الانعقاد ، كان مراد الثاني ، حفيد بايزيد ، يستعيد الممتلكات البلقانية التي كان قد احتلّها جدّه . اما المآثر الحربية التي قام بها جان هونياد في سربية وفالاشية ، واسكندر برغ في البانية ، فلم تتمكن الّا ان تؤخر بضع سنوات ذاك الخطب الهائل الذي كان للاتحاد وحده ، لو تمّ ، ان يتداركه ، ويحول دونه ، بجعل امراء المسيحية في الغرب ينضمّون الى الروم في مقاومة الاتراك العثمانيين .

هذه المعونة الغربية هي التي جاء يطلبها الامبراطور جان پاليولوغ . وكان لا بدّ للحصول عليها من الاتحاد الديني . فرغب فيه الامبراطور رغبة تامّة ، خلصة الارادة ، قويّة الفاعلية دفعته الى ان يترك مقاليد الدولة في يد اخيه قسطنطين لأجل غير محدّد ، ويأتي بنفسه فيحني امام رومة جلال بيزنطية العريق ، والى ان يتابع الجهود في هذا الاتحاد طول اقامة الروم في ايطالية . ولكن هل كانت هذه الرغبة كافية التجرّد ؟ هو ما قد نشكّ فيه اذا اعتبرنا ما يتطلبه دوام الاتحاد من ضمانة خالصة . وذلك انه لم يكن لهذا العمل الالهي المحض ، عمل الاتحاد ، ان يتمّ تحت وطأة الخطر التركي ولا في جوّ المشاغل السياسية . انما تُعدّه دعوة حارّة عميقة ترفع بها النفوس نحو الوحدة .

ولم يكن في الاوساط الرومية ، اذ ذاك ، ما يهيب بها الى هذه الدعوة . فلم يهزّ الروم ذاك الفرح المنفجر في الكلمات الاولى من البراءة البابوية في الاتحاد ، ذاك الفرح الذي يترك السما. والأرض في البهجة والحبور ، والذي عمل ، ولا شك ، على هزّ افضل ممثليهم في فلورنسة .

ولهذا لم يلاق اعضاء الوفد الرومي ، عند رجوعهم ، الّا استقبالًا باردًا من قبل الشعب الذي كان قد سئم الانتظار الطويل ، ولم ترضه تلك الوعود بمساعدة تتركه حتى الآن في حالة متقلقلة مضطربة . وكانت قد أثّرت فيه اسوأ أثر دعاية الرهبان ، معاكسي الاتحاد ، بما كانوا يروّجونه في مهارتهم ودهائهم من ان الاتحاد يساوَم عليه في المجمع مساومةَ السِلَع .

وهكذا اصبح مرقس الأفسسي، من ظلّ في المجمع عدوّ الاتحاد الوحيد لا يضعف ولا يلين، اشبه ببطل مجاهد بل بشهيد في نظر الشعب. اما الذين وقّعوا على صكّ الاتحاد فان البعض منهم — وهم الاقلية، على ما يظهر — كأنطوان المرقلي، وسكولاريوس، رجعوا عن توقيعهم. وتحقّق الباقون ضعف ذاك الاتفاق الذي قاموا به في ظروف ظهرت موافقة من الوجهة البشرية ...

ولنترك التفاصيل الآن من الناحية الشرقية، متجهين جهة الغرب دارسين حالته. هو ايضاً كان يرجو الاتحاد ويحتاج اليه.

فان الكنيسة لم تكد تخرج من الانشقاق الكبير، المعروف بالانشقاق الغربي، بفضل انتخاب مرتينوس الخامس، حتى تهدّدها خطر جديد لا يكاد يقلّ في شيء عن الخطر السابق.

وذلك انه خوفاً من الانشقاق الذي طالما قسم السلطة المسيحية العليا الى سلطتين تدّعي كل منهما السيادة حتى لم يكن يتسنّى دائماً لأقوم الناس نيّة ان يميّزوا السلطة الشرعية بينهما فيخضعوا للبابا الصحيح، — خوفاً من الوقوع في مثل هذا الانشقاق، نشأت فكرة جديدة لدى الكثيرين من ذوي الآراء، ولم تلبث ان اتسع انتشارها يوماً فيوماً. وكان مرماها تعزيز صلاحية المجامع العامّة وجعل سلطة المجمع فوق سلطة البابا، في ايّ حال، حتى وان حكم هذا فردًا دون معارض.

وكان من نتائج هذه الفكرة ان قُرّر في كونستانسة عقد المجامع العامّة، على طريقة دوريّة. فعُقد مجمع بال سنة ١٤٣١، بعد مجمع سيانة سنة ١٤٢٣، تنفيذاً لهذا القرار. وعندما كانت تُرسل الدعوات لهذا المجمع الاخير، كان اوجين الرابع، كوندولمارو، يرقى عرش البابوية خلفاً لمرتينوس الخامس.

وكان اوجين الرابع بندقيّ الأصل، من أسرة شريفة، دخل صغيراً رهبنة الاوغسطينيين في دير مار جرجس في ألغا. ثم رقّاه خاله غريغوريوس الثاني عشر الى رتبة الكردينالية. فاحتفظ بما عُرف به من تقوى عميقة، ونظام دقيق في الحياة. كما انه ظهر حبراً اعظم جديراً بالاحترام، مدقّقاً في اعماله، راغباً في

استشارة الخبراء الصالحين. وقد اتصف في استقباله وفد الروم بكثير من المرونة واللباقة ، ففهم عقليتهم وعرف ان يراعي رقة شعورهم السريعة التأثر فطرةً ، وقد زادها قبولاً للتأثر ظروفهم الحالية وحاجتهم الى المعونة .

ساس اوجين الرابع الكنيسة في تلك الاحوال الصعبة ، وعمل جهده حتى اتم المجمع جلساته وأثمر ثمارًا لم تضمحل جميعها في ما بعد . وذلك انه ، ان يكن الاتحاد ظهر وقتيًا زائلاً ، فان اعمال المجمع وتحديداته لا تزال موجودة ، فوق ما اتى من ثمار اقلّ وقعاً حسيًا ، وان لم تكن اقل اهمية . منها ان الملتئمين والمتناقشين عرفوا بعضهم بعضاً وادرك كل فريق مواهب الفريق الثاني فزاد الاحترام المتبادل بين الشرق والغرب ، وشعر لاهوتيو اللاتين بضرورة الرجوع الى المصادر اليونانية ، كما شعر الروم انفسهم بضرورة اعادة النظر في كنوزهم الاصلية ودرسها درساً دقيقاً .

بيد ان الكنيسة كانت بحاجة اذ ذاك الى حبر اعظم كلاون الكبير او كغريغوريوس السابع ؛ ولم يكن اوجين الرابع واحدًا منهما .. وكان قد اساء صنعاً — عن حسن قصد ، دون شكّ — منذ عقد مجمع انتخابه ، فقيّد نفسه بصكّ يضع فيه سلطته تحت رقابة الكرادلة . هي تلك النزعة التي اشرنا اليها راميةً الى الحطّ من السلطة البابوية تارة في سبيل تعزيز سلطة المجامع العامة ، وطورًا ، كما هي الحال هنا ، في سبيل تعزيز سلطة الكرادلة ، وليس لمجمعهم في اصل وضعه الا صفة استشارية .

هذه النزعة هي التي اخذت توحي مناقشات مجمع بال واعماله ، على طريقة كانت ترداد خطرًا يوماً بعد يوم على سلطة البابا .

ولا يمكنني ان اطيل البحث في اعمال هذا المجمع ، الذي يشكّ الكثيرون في صفته المسكونية منذ بدء اعماله ، بسبب تأليفه ، وما كان في جلسات المناقشات فيه من قلة الاساقفة وكثرة الاكليريكيين الخالسين من كل صفة انتدابية ؛ ولاسيما بسبب الخلاف الذي حصل بينه وبين البابا .

وفي السنة ١٤٣٧ ، عزم اوجين الرابع على نقل المجمع . ثم عين مدينة فرّاري مركزًا له . فاحتجّ اعضاء بال في اكثريتهم ، وامتنعوا عن الامتثال .

واذا بالانشقاق يذرّ قرنه من جديد . ولم تكن سلطة الحبر الاعظم ، اذ ذاك ، من الوضوح بحيث لا يضلّ في بال بعض من تعمّهم الكنيسة في الاوج من الكرامة والقداسة ، من امثال لويس ألمان ، رئيس اساقفة أرل ، الذي رفعه الحبر الاعظم ، بعد ذاك ، الى مصافّ الطوباويين .

واذًا فان الغرب كان يتخبط في وسط ازمة مهمة هي أزمة السلطة البابوية . وليس من شكّ في ان مجمعنا الفلورنتيني عزّز هذه السلطة ، وان يكن هذا التعزيز اتى عن طريق غير التي كان يرجوها عاقدو المجمع .

ولنكتفِ الآن بالاشارة الى اي حدّ كان الاتحاد مرغوباً فيه ، ان من جهة البابا ، وان من جهة اليونان . وأيّ مجد كان ينال البابوية ، تجاه عصاة مجمع بال ، وقد ظفرت بجميع الاخوة المنفصلين منذ اربعمائة سنة ، في تلك الظروف التي كان انشقاق جديد يهدد فيها السلطة البابوية . وقد بدا هذا النصر الادبي بمظهر جلي عندما اعلن الروم عزمهم على الذهاب الى فرّاري ، على رغم ما كان يقوم به موفدو مجمع بال من جهود في دعوتهم اليه ، وما كانوا يعرضون عليهم من مواعيد .

هذا ملخّص موقف الفريقين في السنة ١٤٣٨ .

وقبل ان ندخل في تاريخ المداولات المجمعية نشير بكلمة الى مصادرنا :

ان المحاضر الرسمية التي كان يدوّنها كتّاب محلّفون (ثلاثة من الروم وثلاثة من اللاتين) قد فُقدت باجمعها . ولنا في القيام مقامها ثلاث وثائق نُشرت في المجموعات الكبرى الخاصة بنشر وثائق المجامع كمجموعات هردوَن ومانسي .

١ ــ الوثيقة الاولى . مذكرة رومية وضعها باليونانية احد آباء المجمع نجد فيها هذا القول : « نحن الاساقفة العشرة المعيّنون ... » ويرجّح ان واضعها دوروثاوس المتيليني . تُرجمت الى اللاتينية سنة ١٥٢١ ثم سنة ١٦١٢ ، بقلم متياس كاريوفيلوس .

٢ ــ مجموعة اعمال جمعها في القرن السابع عشر ل . الاتيوس ونشرها أ. جيوستنياني قيّم المكتبة الفاتيكانية . وهي في اساسها مذكرة كتبها

اندري دي سانتاكروس، من اشراف الرومان، لحاضر في المجمع . وأضيف اليها بعض الوثائق

٣ ــ الوثيقة الثالثة من تأليف كاهن رومي اسمه سيروبولوس كان من الدّ اعداء الاتحاد ، وبالتالي يظهر على كثير من التحيُّز . وضع في هذا المؤلّف كل الشكاوى ، حقيقية او موهومة ، التي كان يوجّهها الروم الى دعاة الاتحاد . وقد بالغ فيها المترجم الطابع ، الانكليزي روبر كريتون .

ولنعد الى المجمع :

عند وصول الروم كان المجمع ملتئماً منذ شهر . وقد جرت حفلة افتتاحه الرسمية في ٨ كانون الثاني ١٤٣٨ ، في كاتدرائية فرّاري ، ترأسها الكردينال نقولا ألبرگاتي ، موفد البابا ، مكلّفاً رسمياً مهمة المداولة بشأن الاتحاد ، وبشأن اصلاح الكنيسة ، وبشأن السلام .

ولم يصل البابا الّا في ٢٤ كانون الثاني .

اما الامبراطور فقد تأخر اياماً في البندقية . ولم يتركها الّا في ٢٨ شباط . وفي ٤ اذار دخل فرّاري دخولًا حافلًا بالابهة والجلال .

ولم يبقَ لنا من مدينة فرّاري القديمة الّا شاهدان : القصر العديم الزخرف الشامخ بركنيه وبرجه ، الذي كان مقام دوق ديست ؛ والكاتدرائية الفخمة على عدم الوحدة في طرازها ، بواجهتها القوطية الملصقة في القرن الثالث عشر على اصل البناء الروماني .

على ان فلورنسة قدّمت للمجمع ، بعد ذاك ، إطاراً اجدر واليق . في السنة ١٤٤٠ ، كانت فلورنسة لا تزال في نهضتها البنائية ، بيمة الفراندوق قزما المديسيي . كان دير القديس مرقس لم يتم بناؤه بعد . ولكن قبة برونيليشي (وقطرها يبلغ ضعف قطر البانتيون) قد اخذت تلقي ظلالها على كاتدرائية المجمع . وكانت ابواب لندريا پيزانو ، التي عدّها ميكال انج « جديرة باقفال السماء » ، تزين مكان المعاد .

وكما تأخر الامبراطور فقد تأخر البطريرك ، تعيقه حوائجه التي لم يشأ التخلي عن شيء منها . فلم يصل الى فرّاري الّا في ٧ اذار .

ولم يكن من السهل ان تُعدّ القصور والمنازل لسبعمائة ضيف بين اساقفة ، واسراء ، وموظفين ، وكتبة ، واتباع . وهو عدد الوفد الروسي . فصرف مرتّبو الحفلات ، ورجال الاستقبال جهوداً جمّة في تعيين المقامات ، وتوزيع المنازل على اصحابها ، كلّ حسب رتبته .

وكانت مشاكل البروتوكول ، كما هي اليوم ، تظهر من الامور الجوهرية في نظر المتقيدين بها . فكادت ، غير مرّة ، ان تقود الى اخفاق المجمع .

وقد اظهر البطريرك كل اهتمام بهذه المظاهر ، منذ وصوله الى البندقية ، وهو ما يبدو من ذاك القول المنسوب اليه : « ان كان البابا اسنّ مني ، فاني اعتبره كأب . وان كان من عمري نظرت اليه كأخ . وان كان اصغر مني سنّاً ، نظرت اليه كابن . »

اما الامبراطور فقد اعلن مرّتين ، في اثناء اقامته بفرّاري ، انه لا يرضى بالتنازل عن شيء من عادات الجلال والاحترام المشيعة في بلاط بيزنطية ، حتى في حضرة البابا . في المرّة الاولى ، في ٨ تشرين الاول ، كان يستعدّ لاولى الجلسات الحافلة ، فقرّر ان يصل على جواده فيدخل راكباً ردهة الاجتماع حتى يبلغ المنبر الذي أعدّ له . وعندما اوقفه خدم البابا على الباب ، أظهر الامتعاض الشديد وهدّد بترك المجمع . وفي المرة الثانية ، في ٢٧ تشرين الثاني ، لم يقم بالسلام عليه موفدو دوق برغونية فور وصولهم ، فغضب . ولم يعد الى جلسات المجمع الّا بعد ان قام المذنبون بتعويض حافل .

على انها حوادث عرضية . فان اوجين الرابع بكياسته المعروفة . تدارك كل ما يمكن ان يؤدي الى اصطدام في نظام الاستقبالات والعادات البلاطية . ولم يبق من ميزاته الخاصّة والحقوق الواجبة له الّا ما لم يكن بامكانه التنازل عنه ، محافظةً على مقام الكرسي الرسولي . فليس من ركوع امامه ، ولا من تقبيل رجل . وهو يقف عند وصول البطريرك ويعانقه مقبّلاً اياه في الخدّ ، ولا

يكلف سائر الاساقفة الّا تقبيل يده ، وهي عادة دارجة عندهم ؛ وكان البابا يرفعهم حالًا فيعانقهم معانقة اخوية .

ومما اقتضى درساً طويلًا طريقة ترتيب الكراسي في ردهة الجلسات . وقد افادتنا الوثائق معلومات دقيقة بهذا الشأن .

في كاتدرائية فرّاري كان الروم يختصون بالجهة اليمنى ، اي جهة الرسالة ، واللاتين بالجهة اليسرى ، جهة الانجيل .

وكان في مقدّمة جهة اللاتين عرش البابا . والى جنبه ، اوطأ منه قليلًا ، عرش الامبراطور الجرماني . وقد ظلّ خالياً لان الامبراطور سيجسموند كان قد توفي في كانون الاول ١٤٣٧ .

فكان هذا الدهاء في الترتيب كافياً لجعل عرش الامبراطور البيزنطي في مقام عرش زميله الغربي . واذا بالبطريرك يحتل مركزه الى جنب امبراطوره .

وكان الكرادلة والاساقفة اللاتين يقيمون وراء البابا . وممثلو بطاركة الشرق ، مع الاساقفة الروم يجلسون وراء الامبراطور .

وقد اتّبع هذا الترتيب في جميع الجلسات مع شيء من التغيير الطفيف وفقاً لمساحة الردهات المختلفة والاحوال المتباينة . من ذلك انه يظهر في بعض الجلسات ان الاعضاء كانوا يجلسون على شكل مربّع يحتلّ عظماء الروم واللاتين جهتيه متقابلين . ويجلس الاساقفة وسائر الاعضاء على الجهتين الاخريين .

وفي الوسط منبر الخطباء يتعاقب عليه الروم واللاتين . وقريباً منه المترجم ساگوندينو ، ينقل حالًا كل ما يقوله الخطيب الى الجهة التي لا تفهم لغته .

هذا مشهد الاجتماعات الخارجي ، وترتيب الجلسات القانونية . بيد ان الجلسات لم تحتلّ الّا قسماً من المجمع ، القسم الاوسط بالنسبة الى مدة عقده . وقد تقدّم وقت الجلسات زمن انتظار طويل قامت فيه اللجان الفرعية باعداد الأعمال ؛ وتبع الجلسات زمن مداولات اشبه بما تتطلبه الشرائع في تحويلها من مجلس الى مجلس .

ولنتقدّم الى معرفة هذا المجمع من جهتيه :

من جهة اللاتين

كان في المجمع ٨ كرادلة وبطريركان لاتينيان (بطريرك اورشليم وبطريرك سرادو) يجلسون وراء البابا .

وفي اسفل منشور الاتحاد ٦١ توقيعاً لرؤساء الاساقفة والاساقفة، و٤٣ توقيعاً لرؤساء الرهبنات .

ويجدر بنا ان نذكر بين الكرادلة اثنين كان لهما في اعمال المجمع نصيب أوفر من انصبة الباقين :

الطوباوي نقولا البركاتي، كردينال الصليب المقدس في اورشليم، الذي افتتح المجمع باسم البابا ، قبل وصول الروم .

الكردينال يوليانوس سيزاريني ، كردينال سانت سابين ، المدعو غالباً كردينال الملاك القديس . وقد مثّل دوراً مهماً في حبرية اوجين الرابع ، في مجمع بال ، وفي الحملة الصليبية على الهوسيين ، وطول المناقشات والقرارات في فرّاري وفلورنسة . وكان من عادته ان يسود المناقشات ، فيتابع بدقة كل خطيب في عرض نظريته ، يعينه تارةً ، ويخفف من غلوائه طوراً ، يسدّ ثلمةً ، او يوحي بنصّ موافق ، أو يعطي جواباً حاسماً . وعلى الجملة فهو يظهر ، مدة المجمع ، مستشار البابا الخاصّ ، وقد كان جديراً بهذه الثقة .

ومن الشخصيات البارزة في المجمع ، بعد الكردينالين المذكورين ، نذكر اندري اسقف رودس (الذي تدعوه بعض محاضر الجلسات بالجبّار) . وقد اعتاد عرض العقائد بكثير من الاندفاع ، مسهباً في الشروح وايراد النصوص ، مطلعاً الاطلاع العميق على مؤلفات الآباء اليونان ، وعلى تاريخ المجامع ، الّا ان خطبه الطويلة كانت تضجر الحاضرين احياناً فيتذمّرون ويضطر الكردينال يوليانوس الى التدخل .

ونذكر اخيراً اثنين من الآباء الدومنيكان :

اولهما جان دي مونتينيرو المدعو ايضاً جان دي راغوز ، رئيس الدومنيكان في اقليم لومباردية . وهو لاهوتي نابغ في جميع المواضيع ، بل هو خير الخطباء

اللاتين دون شك .

وثانيهما جان دي توركيادا الذي جُعل كردينالاً في ما بعد . وهو غير سميّه الذي يلوّح باسمه اعداء الكنيسة كلما تكلموا عن ديوان التفتيش .

من جهة الروم

اول من نذكر منهم البطريرك يوسف ، بطريرك القسطنطينية ، شخصية تكاد تكون متضائلة ولاسيما اذا قارناها بالامبراطور . فان هذا كاد ان يوحّد في شخصيته مثل الروم الاعلى ، فيلفت الانظار وحده ، وعلى اثره يسير موفدو الروم في اقوالهم واعمالهم . وان يكن قد اتصف من دقة الفهم وحسن الذوق بما يمنعه من الخوض في مجال المقائد والتحديدات ، محوّلاً دائماً على ارباب الاختصاص في هذه الشؤون ، فانه لا يتراجع عن ادارة المناقشات من جهة الروم بل من الجهتين معاً في ذاك المجمع الذي لم يكن له من رئيس .

وهي حالة غريبة ؛ انما يهيمن عليها ، فيمنعها من التهوّرات المؤسفة ، خيال قسطنطين الكبير . وقد جعلها مقبولة في فلورنسة ما فُطر عليه اوجين الرابع من كياسة وخلق مسالم على خلوّه من الضعف .

بيد ان البطريرك الشيخ المريض الضعيف ، المتضائل في ظلّ الامبراطور ، بقي يتمتّع ، في نظر مرؤوسيه ، بالخطر المميّز اول مركز بطريركي في الشرق . فيجتمع الاحبار الروم في غرفته عاقدين الحلقات الخاصة التي تبعت الجلسات العمومية . وقد وجد البطريرك الشيخ ، في وضوح ايمانه البصير ، مشروع اعتراف اتحادي بالروح القدس اجمع الاعضاء على الموافقة عليه . بيد ان الموت فاجأه بعد ذلك ببضعة ايام ، في ١٠ حزيران ، وهو الى طاولته ، وقد انتهى من تدوين وصيته الاخيرة . وكان من مفعول هذه الوصية ، ومن موقف صاحبها الراغب رغبة مجرّدة في الاتحاد ، ان اخذ من بقي من المعاكسين يتقرّبون شيئاً فشيئاً . فشاء البابا ان يُقدّم لجثمان الراحل الجليل كل ما يليق بتركته البطريركي من جلال واكرام . ثم دُفن في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا بفلورنسة ، ولا يزال في الكنيسة الرومانية عربون الاتحاد المقبل .

والى جنب البطريرك يوسف ، كان من المنتظر ان يجلس بطاركة الاسكندرية ، وانطاكية ، واورشليم ، وقد أرسلت اليهم الدعوات منذ السنة ١٤٣٦ . على انهم رأوا من الحذر الا يلبّوا بانفسهم دعوة الامبراطور فاوفدوا ممثّلين عنهم وزوّدوهم ، بعد الصعوبات الجمّة ، بسلطات غير محدودة . وهذه اسماؤهم :

عن الاسكندرية : انطوان اسقف هرقلة ، وغريغوريوس ماماس بروستجلوس القسطنطينية .

عن انطاكية : مرقس اوجينيكوس ميتروبوليت افسس ، وايزيدور الكيائي .

عن اورشليم : دنيسيوس السردي ؛ ثم بعد وفاته ، دوزيتي النومنبازي .

واشهر من يذكر بينهم جميعاً مرقس الافسي . ومن الصعب علينا ان نحكم بتجرّد على هذا الخصم العنيد الذي لم يفتر لحظة عن معاكسة الاتحاد . فلنكتف بتدوين صراحته وعدم تذبذبه . وله فيها الفخر على من بدا مضطرب العقيدة متغيّر الآراء. كانطوان اسقف هرقلة ، الذي بعد ان وقع على وثيقة الاتحاد ، ارتدّ عن رأيه وأخذ بمحاربة المجمع . اما مرقس الافسي فيظهر لنا ، على تعمّقه في الدروس الكتابية ، عاجزاً عن قبول ما لا يوافق تقليده الحرفي الدقيق - وكأنه ، في اجربته المضطربة احياناً لدى اشتداد المناقشات ، لا يرى الا ما اعتاده وحفظه ، وشبّ عليه .

بقي ان نحيّي الى جنبه ، دعاة الاتحاد المدافعين عنه وهم : بسأريون ، وايزيدور الكيائي ، ودوروثاوس اسقف متيلينه .

وكم وددت لو اتيح لي ان اتوسّع في الكلام عن شخصية لعلّها من اجذب شخصيات المجمع واسماها ، هي شخصية بسأريون ، الذي سيصبح كردينال الكنيسة الرومانية ؟ فاكتفي بالقول انه كان ، من جهة الروم ، في مسألة انبثاق الروح القدس خاصة ، افضل العاملين على الوحدة الداخلية والداعين الى الاتحاد . اما وجهة نظره في هذه النقطة فيظهر انها ثبتت مدة المجمع . ولكن له الفضل بان جمع ولخّص براهين اللاتين في رسالة موجزة قدّمها الى زملائه ولا

تزال خير ما كُتب في الموضوع .

اما ايزيدور الكياثي ، ممثل العالم السلافي في المجمع ، فلم يتمكن ، بعد رجوعه الى بلاده ، من نيل الموافقة على مقررات المجمع . فارتد الى رومة ميعيش فيها متحدًا مع الحبر الروماني الذي مجّده بجلة الارجوان .

وهناك كثير من الاسماء يعرفها العلماء لا اللاهوتيون فقط ، من امثال سكولاريوس ، وجينيستوس ، وفليتون ، وبَلسمون ، وكسانتوپولوس . وكلهم من كبار المتضلعين حتى صحّ القول انه ، وان يكن المجمع قد حُرم رئاسة مدبّر بصير ، فقد امتاز بما مثّل فيه اعضاؤه من علم ومواهب متنوّعة .

ولنلخّص الآن مراحل تاريخه

وهي تُقسم طبعاً الى حقبتين : فرّاري من اذار ١٤٣٨ الى كانون الثاني ١٤٣٩ — وفلورنسة كانون الثاني ١٤٣٩ الى ٦ تموز ١٤٣٩ ، وقد حدث فيه لا ، ختام المؤتمر ، بل تاريخ التحديد الاحتفالي المعروف بقرار اتحاد الروم .

ثم تابع المجمع اعماله ، بعد هذا التاريخ ، في فلورنسة اولا مع موفدي الارمن . ثم في رومة حيث دوّنت قرارات الاتحاد مع سائر الكنائس المنفصلة من يعاقبة ، وكلدان ، وقبط ، ومنفصلي القبارصة .

وكل حقبة من حقبتي فرّاري وفلورنسة تنقسم هي ايضاً الى عهدين : في فرّاري : عهد الانتظار ، ثم عهد الجلسات العامّة . وفي فلورنسة : عهد الجلسات العامّة حتى عيد الفصح ، ثم عهد المباحثات والمداولات الاخيرة .

وصل الروم الى فرّاري في اوائل اذار .

وكان القوم لا يزالون في انتظار آباء بال ، ووفود الامراء الذين كان قد دعاهم البابا . اما الباليون فكانوا يظهرون الصناد حتى ان مجمعهم ، وقد اصبح منشقًا ، احتفل في ٢٤ اذار بجلسته الثانية والثلاثين فاعلن فيها تفوّقه على البابا . واما الامراء فلم يوفدوا احدًا عنهم .

فباشر البابا في ٩ نيسان ، افتتاح المجمع الاتحادي بجلسة حافلة . وكان

البطريرك مريضاً ، فتُليت رسالته التي يعترف فيها بالمجمع ، ويتمنّى ان يشترك فيه جميع الغربيّين ، معلناً الحرم على كل من لا يقرّ بـه . وبعد ذلك تُليت براءة اوجين الرابع

وتلا الجلسة الافتتاحية زمن فراغ طويل . كان فيه الروم يطلبون حضور الامراء ؛ اما الامبراطور فقد انصرف الى العيد في مستلكات دوق ديست .

وبفضل ما بذله البابا من الجهود ، توصّل الى تأليف لجنة لاهوتية يشترك فيها عشرة من الروم وعشرة من اللاتين ، فيجتمعون في كنيسة الفرنسيسكان لدرس الموضوعات المختلف عليها .

وسرعان ما اتفق الاعضاء على ان يحصروا في اربعة مواضيع اهم نقاط الخلاف وهي : انبثاق الروح القدس — الفطير — المطهر — رئاسة الحبر الاعظم . وهي النقاط التي خاض فيها واضعو التحديدات .

اما مسألة التقديس ومفعولية كلمات المسيح التي يردّدها الكاهن ، فقد اكتُفي فيها ، باعتراف شفهي قام به بسّاريون بحضور البابا والكرادلة في اليوم السابق للتحديدات .

على ان لاهوتيي الروم ، اعضاء اللجنة لم ينالوا من الامبراطور الموافقة على اجراء المناقشة الّا في شهر حزيران . وفوق هذا فقد حصر هذه الموافقة بالموضوعين الاخيرين . فخُصّ شهرا حزيران وتموز بمقيدة المطهر . واني اكتفي في صدد تلك المناقشات بذكر الخطيبين الشهيرين اللذين تولّيا المناقشة وهما : مرقس الأفسسي ، وجان دي تور كمادا . وقد كانت المناقشة دقيقة متتابعة البراهين من جهة اللاتين . حتى اظهروا شيئاً من الاضطراب والغموض في آراء الروم بشأن الكفّارة ، كما اظهروا الثلمة الواهية في لاهوت الكثيرين منهم بعدم ايضاح الفرق بين الإثم والجزاء ، بين الخطيئة المغفورة بفضل الحلّة ، والتكفير الواجب على اثر هذه الحلّة .

اما اعمال المجمع في تلك الحقبة فقد نُشرت مؤخرًا في مجموعة الآباء الشرقيين للمسيو كرافن . فظهر انها كانت تُعدّ ، على افضل ما يمكن ، التحديد النهائي في هذا الموضوع . وهو التحديد نفسه الذي اكتفى المجمع الترينتيني بان كرّره في جلسته الأخيرة .

وفي شهر تشرين الاول ، رضي الامبراطور بان لا تؤخر الى ما وراء هذا التاريخ ، جلسات المجمع العامة . واذا بالاعضاء يستمدّون للبحث في انبثاق الروح القدس .

ولكن كيف يتناولون هذا البحث ؟

وهو مزدوج : فيه قسم يتعلق بالعقيدة ، ويتناول المشكل : هل ينبثق الروح القدس من الآب وحده ، كما يزعم فوطيوس ، ام من الاب والابن ، كما تعلّم كنيسة رومة ؟

وفيه قسم يتعلّق بالنظام الكنسي وموضوعه : هل يُفرض إدخال مسألة الانبثاق في قانون الايمان على جميع المسيحيين ؟ وهل هذا الإدخال مشروع في حدّ نفسه ؟

وعلى هذا تألف في المجمع فئتان :

فئة قوامها بساريون وسكولاريوس مع جمهور اللاتين ، كان من رأيها ان يُخاض اولًا في أساس المشكل بتناول العقيدة .

وفئة ثانية تستند الى مرقس الافسسي ، وجينيستوس ، وفيتون ترمي الى البحث اولًا في شرعية الزيادة المذكورة على قانون الايمان .

وقد كان النجاح من نصيب هذه الفئة . وناهيك بما تدفق حول هـذا الموضوع من علوم كتابية وجمعية ، ومقدرة في الجدل والنقاش ، ومرونة في تفريع المشاكل وتنويع القياسات ، مما لا يتخيله المؤرخ على حقيقته الّا اذا رجع الى تفاصيل اعمال المجمع .

هم لاهوتيون يتشاحنون . وبصدد هذا المشكل النظامي البسيط ، يثيرون شتّى المواضيع المهمة : كحقوق الحبر الأعظم في مادّة العقيدة ، والإضافة المشروعة وغير المشروعة ، والإضافة الجوهرية ، والعرضية الشارحة . . . وما الى ذلك من موضوع تطوّر العقائد ، وموضوع الصريح والضمني .

أضف الى ذلك مـا لا يؤمن جانبه في المناقشات من شروح وتطويلات في الطريقة التي يجب اتباعها ، ومن تضجّر السامعين وتذمّرهم الصريح احيانًا بسبب اطالة بعض الخطبـاء ، او انحرافهم عن الموضوع ، او اهمالهم الردّ على براهين الخصم ، واذا امامك صورة لما تقود اليه المشاحنات الكلامية ، ولم يضبطها ضابط

في طريق الجدل الحقّ .

كانت الفلسفة الكلامية قد قربت من عهد انحطاطها ، فظهرت فيها شهوة اطالة الجدل حتى الشره الخطابي ، كما بدا في ارباها كثير من التعلّق ببعض التعابير والصور القياسية المتداولة في الحلقات اللاهوتية جيلًا عن جيل . حتى اذا انتقل المتناقشون من الخطب الطويلة الى المجادلات القصيرة المتتابعة تتابع السهام سُرّي عن الجميع واستراح اولئك المناضلون استراحة ابطال المصارعة بعد الشوط المتعب .

وكان اللاتين يظهرون اقدر من خصومهم في هذه المناظرات القصيرة واسرع في ردّ السهام ، بينا كان الروم يفوقون اللاتين في معرفة النصوص الكتابية ، وفي استعمال الدقائق الكلامية في الشرح والتفسير . وكثيرًا ما نعوا على اللاتين التجاءهم الى المجادلة . فيجيب هؤلاء بانها محكّ الحقيقة ، ولا طريقة سواها للفصل بين المشاكل .

اما اهم المناضلين في هذه المعارك الكلامية المتتابعة في آخر شهور السنة ١٤٣٨ ، فكان اندريه الرودسي من جهة اللاتين ، ومرقس الافسسي من جهة الروم . وكان الكردينال يوليانوس يعقد اسقف رودس ، والامبراطور يتدخل بنفسه فينتصر لاسقف افسس .

وكانت براهين الروم تدور في غالبها حول نصّ في مجمع افسس (وهو المجمع المسكوني الثالث) يمنع فيه ، تحت طائلة الحرم ، كل تغيير في قانون ايمان نيقية-

فيجتهد اللاتين ان يظهروا ، مستندين الى ظروف القرار نفسه والى تاريخ المجامع التاليه ، ان النصّ يشير الى التغيير العقائدي لا الى تغيير تعبير او اضافته- وهكذا كان من الممكن ان يُضاف شرعياً الى قانون الايمان النيقاوي تعبير : « والدة الإله » ، دون ان يعاكس نصّ المجمع الافسسي ، الذي كوّن شهادة ايمانية ضدّ نسطوريوس .

طالت هذه المناظرات حتى ان بعض الروم اخذوا يفكرون بالرجوع الى بلادهم . وفي شهر كانون الاول ، بسبب انتشار وباء في فرّارة ، وبسبب

الرسم ١ – بـاريون وقد ارتدى القبعة الكردينالية – ويُلاحظ انه في محتفظاً بلحيته في بلاد المغرب .

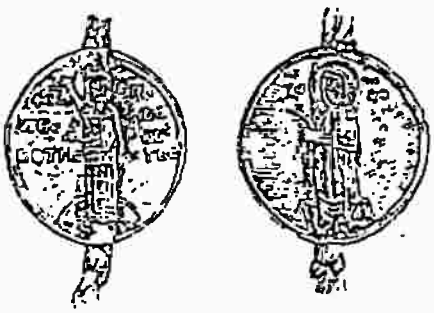

الرسم ٢ – الخاتم الذهبي باسم الامبراطور جان الثامن پاليولوغ الذي صدر به قرار الاتحاد ، بعد ان وقعه البابا والكردلة والامبراطور والاساقفة

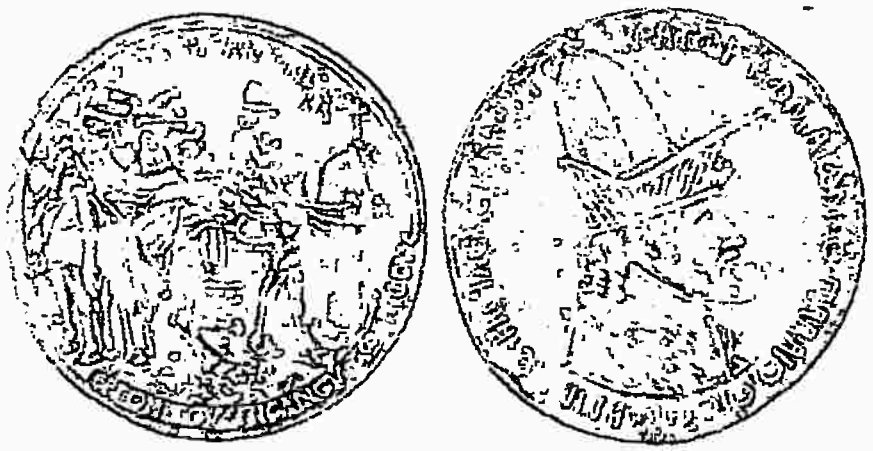

الرسمان ٣ و٤ – الامبراطور جان الثامن پاليولوغ (١٤٢٣–١٤٤٨) – جلست اسرة پاليولوغ على عرش بيزنطية منذ السنة ١٢٦١ . وقد خلف جان الثامن اخوه قسطنطين الحادي عشر وفي زمنه وصل الترك القسطنطينية سنة ١٤٥٣

الصعوبات المالية الظاهرة في خزينة الدولة ، رأى الحبر الاعظم ان يقترح نقل المجمع الى فلورنسة . وكان غراندوقها قد عرض عليه شروطاً موافقة .

وفي ٢ كانون الثاني ، كان الامبراطور في جلسة عند البطريرك ، فطلب الى الاساقفة ان يذعنوا لاقتراح البابا بنقل المجمع ، ويلبّوا طلب اللاتين بمباشرة البحث في النقطة العقيدية من انبثاق الروح القدس . فأيّد بساريون طلب الامبراطور ، وقبل الجمهور بالاقتراحين .

في فلورنسة بدأت حقبة جديدة من تاريخ المجمع نراها افضل بكثير مما تقدّم سواء أكان بقيمة الخطباء أم بأهمية الموضوعات المطروقة .

وقد خلف اسقف رودس ، في الكلام عن اللاتين ، جان دي راغوز ، ذاك الذي تدعوه الوثائق الرئيس العام . اما من جهة الروم فظلّ مرقس الافسسي حامل لواء خطابتهم .

واما الموضوع المطروق فهو انبثاق الروح القدس . وهو موضوع يتطلّب بحثاً برأسه كي نفيه حقه .

اننا نكتفي بالاشارة الى اهمية هذه العقيدة في حياتنا المسيحية ، لانها تتعلّق بالسرّ الاساسي في ايماننا ، وهو سر الثالوث الاقدس . ومن ثمّ فلا يتهورنّ احد من المسيحيين الى القول : لنترك للاهوتيين امر المشاحنة في هذه المشاكل ، ولنحيَ انجيلنا في حياتنا المسيحية !

وكيف تمكن الحياة المسيحية اذا فُصلت عن اساسها ، وهو حياة المسيح نفسه فينا ، بروح قدسه مبدأ النعم المفاضة في نفوسنا ! وانّى يكون هذا ان لم يكن الروح القدس نفسه روح الابن متّخذاً من الابن كل قدرته المبرّرة وكل كيانه ، لانه ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب .

وهو سرّ الوحدة الالهية في الثالوث الاقدس . لان الوحدة نفسها يعترضها الخلل اذا ما اخذنا بالتمييز بين اقانيمها ، ألا التمييز الانبثاقي المحض . واننا لنتعرّض لهذا التمييز الخطير ، اذا جنحنا الى القول بان الروح القدس لا ينبثق من الابن .

وعليه فان مجمع فلورنسة اتم عمل مجمعي نيقية والقسطنطينية في اقرار عقيدة الثالوث الاقدس .

اخذ جان دي راغوز الدومنيكي نصوص الآباء اليونان فعرضها وشرحها في ترتيب واضح ، من القديس ايبفانيوس ، الى القديس اثناسيوس ، الى القديس غريغوريوس النيصي ، مبيناً انهم ، وان لم يصرّحوا علناً بالانبثاق « من الابن »، فقد علّموا ما يقابل هذا القول ، باثباتهم ان الروح القدس يتناول حقّاً كيانه من الابن ، كما يتناول الابن كيانه من الآب (وان كانت الطريقة مختلفة)

وكان ان دخل نصّ منحول في مجموعة النصوص الايوية . هو نصّ مأخوذ من الكتاب الخامس من مؤلّف القديس باسيليوس في الردّ على اونوميوس . ومن المعروف انه ليس ثابتاً من آثار القديس باسيليوس ضدّ هـذا المبدع الّا الثلاثة الكتب الاولى . وعليه فلم يتردّد احد من الفريقين في رفض النصّ . على ان محاجّة جديدة نشأت بشأن نصّ آخر لا شك في صحة نسبته ، وهو مأخوذ من الكتاب الثالث للمؤلف نفسه . عرض اللاتين هذا النصّ مستندين اليه ، فردّه الروم بحجة انه لا يوجد في كثير من المخطوطات اليونانية للكتاب المذكور . فلم يصعب على الخطيب اللاتيني اظهار وجود النصّ في عدة مخطوطات يونانية قديمة جيء بها من القسطنطينية نفسها . وهو فوق ذلك ، مما يتطلبه المعنى الاجمالي في المقطع .

ولكن الخصوم لم يقنعوا ، اول الامر ، فثارت عاصفة من المشاحنات سُمع فيها كثير من النعوت تتردّد بين الفريقين ، ولا تبعد كثيراً عن صفات التزوير والتلفيق . ويُذكر بهذه المناسبة ، ان احد الخدم أُرسل ليحضر مخطوطة الى الجلسة . فدفعه الفضول في الطريق الى التفتيش في الموضع المذكور . ولمّا رأى النص المزعج لمعلّمه ، اراد ان يخلّصه منه ، واذا به يُقبل على حكّ السطر المطلوب . على انه في سرعته حكّ الصفحة المقابلة . ولشدّ ما كان استغرابه وحيرته ، عندما ادرك خطأه ، وهو يتسمّع في الجلسة فيرى الخطيب يستند الى تلك الحجة التي توهّم انه محاها وازالها من الوجود .

ويجب الإقرار ، وفقاً لشكوى الامبراطور ، ان تلك المناقشات العامة لم

تؤدّ الى نتيجة مقبولة ، إن من جهة البحث في العقيدة ، وان من جهة الجدل في شرعية الاضافة .

بيد ان الامبراطور استفاد من ايراد نصّ للقديس مكسيموس ، فتذرّع به واوقف تلك المناقشات .

اما النصّ فيقول: « اذا علّم الابوان اللاتينيان (اغوسطينوس وامبروسيوس) ان الروح القدس منبثق من الابن ، فهما لا يدّعيان ان الابن مبدأ الروح القدس الاولي . فليس الآ مبدأ اوّلي واحد للابن وللروح القدس . »

سمع الامبراطور هذا النصّ ، فصاح : ليقرّ اللاتين بصحة هذه الرسالة ونوقع معهم وثيقة الاتفاق .

والحقّ انه كان في هذا النصّ نور جديد .

وكانت احدى صعوبات اليونان في قبول النصّ اللاتيني ناتجة من كلمة مبدأ (principe) التي كانوا يفهمونها دائماً بمعنى المبدأ الاولي ، وهو الينبوع الاصيل او المصدر الاولي لكل حياة دينية . وهذا الينبوع واحد أحد هو الآب

وهناك صعوبة ثانية تنتج من ان الروم كانوا ينسبون الى اللاتين القول بان الآب والابن مبدأان متميزان وبالتالي متعاونان في بثّ الروح القدس

وكان من فضل ذاك النصّ انه وفّر للمتناقشين حلًا يمكن التفاهم فيه والاتفاق عليه ، وتعبيراً يوضح تلك العقيدة المطلوب تحديدها .

فبدأت المفاوضات بشأن اقتراح الامبراطور . وكان عيد الفصح قريباً . فاوقفت الجلسات العامة . وبدأت حقبة المجمع الاخيرة ، حقبة المداولات بين وفد الروم ، والبابا يعاونه مستشاروه .

وكان اول ما بُتّ بشأنه عقيدة انبثاق الروح القدس .

وفي الاجتماع الاول الذي عقده اعضاء الروم في جلسة خاصة ، ظهر من تقرير بسأريون ، او رسالته الجامعة التي اشرنا اليها ، ان جميع المشاحنات السابقة لم تذهب عبثاً . لقد اثار الحقّ هذه النفس القويمة ، فلخّصت على افضل ما يمكن من الدقة والوضوح، في سبيل انارة اخوانها، جميع المشاكل والمناقشات والنتائج.

بقي الاتفاق على وضع النصّ . وهو ما قام به الفريقان بتُؤدة وبطء .

ذلك ان اللاهوتيين اللاتين كانوا شديدي اليقظة والحذر ، والبابا نفسه ، الذي كان يبدو على كثير من التساهل في شتى الامور ، لم يكن ليتساهل بشيء في ما خصّ العقائد ، ولا ليتقدّم خطوة الّا بمعاونة اللاهوتيين . واخيراً حصل الاتفاق . وكان الروم قد حاولوا ان يضعوا الى جنب تعبير اللاتين — « الروح القدس المنبثق من الآب والابن » — وبطريقة مساوية له تعبيرهم هم — « الروح القدس المنبثق من الآب بالابن » . فتلطّف اللاتين في اقصاء هذه الفكرة حذراً من ان يظهر دور الابن الفعّال ، المعادل لدور الاب ، على شيء من الضعف . فاكتُفي بان يضاف الى تعبير اللاتين ، بشكل التصريح ، ان التعبير الذي استعمله الآباء والمعلّمون اليونان لا يرمي الّا الى ما يرمي اليه التعبير اللاتيني ، ويجب ان يفهم فيه دور الابن فعّالاً .

نال الامبراطور هذه النتيجة فاعتبر عمله منتهياً . وكان قلقاً على عاصمته ، والترك يهدّدونها دائماً ، فنفد صبره ، وحذر من شتاء ثانٍ يقضيه في ايطالية . فلم يبقَ له من همّ الا التفكير بالعودة . حتى انه رفض قبول الملخّص الذي ارسله اليه البابا ليعرضه على المناقشة وينهي به موضوع الاتحاد في النقاط الثلاث الباقية وهي : المطهر ، والفطير ، ورئاسة البابا .

وقد كان الامر غريباً من قبل الامبراطور الذي كثيراً ما دفع اساقفته الى التعجيل في اقرار الاتحاد مهما كلّف الامر . والذي اوقف مرقس الافسي وانطوان الهيرقلي على طريق العودة ، واقام على ابواب المدينة حُرّاساً يمنعون خروج الروم قبل انتهاء المجمع . هذا الامبراطور يهدّد اليوم بنقض كل شيء ويستعدّ للسفر العاجل على مرّتين .

في هذه الايام العصيبة ظهر الجلد الروماني في اوجين الرابع وصبره السموح باجلى مظهر ، لقد ساءه رفض الامبراطور لخلاصته ، فلم يتمكّن من البقاء . ولكنه اعطى الكردينال يوليانوس كل السلطات ليعيد المياه الى مجاريها .

واذا باللاتين ينزلون على رغبات الروم في اساليب المناقشة .

وكان البابا تارة يستقبلهم في مقامه الخاص ، وطوراً يذهب بنفسه الى مقام

البطريرك المريض فيرئس الجلسة عنده .

وقد تجنب جان دي راغوز في محاضرته على رئاسة البابا ، ولاسيما حتّه في دعاء المجمع ، وقبول جميع القضايا المستأنفة اليه ، كل تعبير يُشتمّ منهُ رغبة الردّ او المناقشة . وكذلك كان موقف جان تروكمادا في محاضرته على الفطير وكلمات التقديس .

اما البحث في النصوص الدامية الى المناقشة فكان يجري في لجان خاصة قليلة عدد الاعضاء. وهذه لجنة مؤلفة من اربعة لاتينيين واربعة روم تشتغل وحدها مدة ثلاث ساعات، بينا كان البابا يستقبل في مقامه بدير الدومنيكان رؤساء الروم فيحادثهم بمختلف الشؤون، ويدير عليهم المرطبات واطباق الحلوى

وأخيرًا في ٢٧ حزيران أُلفت لجنة عُهد اليها بوضع نصّ الاتفاق ، الذي سيقرأ ويوقّع في التاسع والعشرين من الشهر نفسه ، عيد الرسولين بطرس وبولس .

ولكنّ المشاكل لم تنتهِ بعد. ومنذ الكلمات الاولى حصل خلاف جديد . يريد الروم ان يضعوا مع اسم البابا اسم الامبراطور . وبعد مداولات قليلة رضي البابا بهذا الشكل في مطلع الوثيقة :

« اوجين الاسقف، عبد عبيد الله ، تخليدًا للذكرى ، بموافقة ولدنا الحبيب بالمسيح ، جان پاليولوغ امبراطور الروم الشهير . »

ووقّع وحده فوق الجميع على هذا الشكل :

« انا اوجين ، اسقف الكنيسة الكاثوليكية ، وقّعت محدّدًا . »

وبعد تواقيع الكرادلة ، وقع الامبراطور بهذا الشكل :

« انا جان پاليولوغ ، المؤمن بالمسيح ، ملك وامبراطور الروم ، وقّعت . »

وهكذا تمّ الاتحاد. ولم يبق خارجاً عنه الّا مرقس الافسسي فلم يوقّع الوثيقة.

تقدّم لنا ان ذكرنا باختصار ما كان من مصير هذا الاتحاد ، على اثر رجوع الاساقفة. وكان هؤلاء قد استفادوا باحتكاكهم باللاتين ، اكثر من سنة ، على الدرس والجدل والمناقشة ، تفاهماً متبادلًا قادهم الى اعتبار بعضهم بعضاً . اما

الثائرين فجروا على ميول الطبيعة البشرية في مثل هذه الاحوال، فقالوا ان الحاضرين اساؤوا صنعاً. ونفروا من مقررات المجمع. وقد يكون زاد في نفورهم طول مدته، ولأنهم لم يشتركوا في اعماله، وهذا من مظاهر الانانية البشرية كذلك.

فرفض المجمع البطاركةُ الثلاثة في الاسكندرية وانطاكية واورشليم. اما الامبراطور فظلّ اميناً على توقيعه، وعمل على انتخاب خلفٍ للبطريرك يوسف، أحد دعاة الاتحاد المعروفين، متروفانس دي سيزيك. ولكن بعد وفاة الامبراطور، كانت فكرة الاتحاد قد مُنيت بكثير من الإعراض والمعاكسة، حتى ان اخاه وخليفته الامبراطور قسطنطين، لم يجرؤ على نشر قرار الاتحاد، على الرغم ما كان عليه الروم من حاجة الى معونة الغربيين.

بيد ان وثيقة الاتحاد التي وقعها الامبراطور وممثلو السلطات الرومية، لم تنقض قطّ رسمياً. اما ذاك المجمع القسطنطيني الذي يزعم بعض اعداء الاتحاد بانه نقض عمل فلورنسة، فسلا وجود له الّا في مخيّلة هؤلاء الاعداء. وها ان افضل مؤرخي الارثوذكس، من امثال باسيليوس، لا يتردّدون في نفي وجوده.

واذاً فالنصُّ باقٍ في مضمونه العقائدي وثيقة الاتحاد الحقيقية.

فلتعمل الرغبات المخلصة المتزايدة يوماً عن يوم، والدروس الرامية الى التفاهم المتبادل، ولاسيما الصلوات المشتركة المستلهمة من المبدأ المسيحي الواحد، على اعادة هذا الاتحاد اعادةً نهائية.

هذا رجاؤنا جميعاً!